كلمةُ الأب البروفسور جورج حبيقة
رئيسِ جامعة الروح القدس الكسليك
في ندوةٍ تكريمية للدكتور منصور عيد
الكسليك في ١٠ أيار ٢٠١٩

إن المثولَ امامكم، ايها الكرام، لإلقاء كلمة في صديقي وزميلي منصور عيد، لهو لحظة مشبعة بالتأثر والحنين والكآبة الفرحة. كيف ستكون كلمتي في من عشق الكلمات وضخّ فيها من شاهقات أفكاره وخياله المتوثب! في أديب وشاعر وقصصي أبصر النور في قرية مستلقية بخفر على تغضّنات سفح حالم، ينطلق من جوار سيدة مشموشة وينحدر جذلا في تعرجات سكرى حتى ينغمس في نهر الأسكولاب، نهر الأولي، في وادي بسري الضارب في عمق التاريخ؛ في بتدين اللقش، بلدة الأب لويس الحاج، المرجع المتألق في العلوم الموسيقية والمنتخب لثلاث مرات متتالية حتى مماته رئيسا لِلَجنة الموسيقى المقدسة في القاتيكان من قبل كبار الأدمغة الموسيقية الكاثوليكية في العالم، والرئيس الاستثنائي لجامعة الروح القدس الكسليك، وبلدة الأديب والشاعر المجلّي والمبدع بولس سلامة، وبلدة الكثيرين من المفكّرين والمؤرخين وغيرهم. هذه البلدة التي تتعانق في حديقة الجمال والفتون مع قريتي الميدان، في منطقة خلع عليها الله ثوبا صَنَوبريا أخّاذا، جاعلا منها فردوسا فريدا مترنّحا على إيقاعات الألوان الزاهية ورزاز الينابيع المتراقصة.

رحل منصور عيد عن هذا الوجود وعَبر إلى ضفّة الوجود الآخر الذي لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر، ليقيم في رحاب الزمن الأبدي، في بيت الآب اللاّمتناهي، حيث التلاقي مع اللهِ مصدرِ كلّ شيء ومصبِّ كلّ شيء. إن منصور عيد لم يرحل من القلوب، ولم يهجر ذاكرتنا. فالأحياء بالفكر، وإن غابوا عن العين، لا يموتون... بل يبقى نورهم ساطعاً متوهّجاً ليذكرنا، نحن اللبنانيين، وبصورة خاصة، في حاضرنا الحافل بشتّى أنواع المآسي، أننا مدعوون أبداً إلى قيامة الذاكرة، وإلى السير معاً على خطى المتمرّدين على اليأس والظلم وجميع صنوف البشاعات، الذين شقوا لنا مسالك منسوجة من أوجاع التاريخ، وبنَوْا لنا

حدائقَ معلقةً على شطحات الخيال، وجبلوا "الحبّ من تراب الوطن"، وشادوا هيكل الأخوّة والتحاب، ونزلوا الأعماق مغامرة إبداع وهم يسكنون السماوات، فأعتقوا الجسد من الآلام من غير أن تستكين الروح الفاعلة في كلّ من عرف منصور عيد الرسولي النزعة، في كلّ من قرأ له أو استمع الى لمعاته، التي يتلقفها المستمع بصمت ووله.

إن الكتاب "التزامي بلبنان والانسان" هوخلاصة رسالة منصور عيد الأدبية والشعرية والمسرحية والحقوقية والإيمانية والتراثية ... ولمنصور عيد حجة دامغة في القصص الصغيرة المختارة لإحياء الصور النموذجية لإنسان لبنان الدائم على الزمن، هذا الفيلسوف "الإيكولوجي" المستمدّ معرفته من الطبيعة والأرض، وذلك الثري الخارج من رحِم الفقر، وقد اعتاد العيش مع قساوة الجرد وأسطورته، ومن ثم التاجر الآتي من "سوق الجملة"، الوافد من المدينة البعيدة، حاملاً في جعبته أحلام النسوة والأطفال. وتضفي اللوحة الأخيرة مشهداً تاريخياً أشبه بالدكان المتجوّل وقد ابتلعه اليوم "Mall"، ولا تعرفه النساء حاضراً، وربما لم تسمع به الأجيال حالياً، بعد ان أفقدتها التخمة الشهوة، وأقصتها عن التعجّب والدهشة البريئة امام ما هو جميل.

وإلى وجوه منصور عيد العابقة بتاريخ عصي على الموت، والقابعة أبداً في دفء أعماقنا، تطلّ بيروت، "ستُّ الدنيا"، بوجهيها المتناقضين، من مدينة الحبّ والحقّ والفنّ والثقافة، حيث الليرة الواحدة فيها كانت تشكّل ثروة في يد أهلها، وحيث ساحاتها التاريخية تحضن العيش معاً وتخصبه في التشاركية وتآلف الاختلاف، الى مدينة المقابر، بعد ان عاثت فيها الحرب فساداً وقهراً، وأزهقت روحها، وعرّتها من تاريخها المجيد، لتصبح رمزاً للتمزق، وبيئة تتقن فن هجر التنوّع والإقامة في قفر الأحادية القاتلة، ومساحة غير مسبوقة لفقدان الذاتية التاريخية والهوية والأصالة.

إلا أنّ منصور عيد لا يستسلم لانهيارات الزمن الرديء، فبيروت هي"النبعة" التي لا تنضب، والمحتاجون إليها كثيرون، يعودونها في حالتيْ السأم والأمل، يعبّون من تاريخها، فتُلهَب الذاكرة، وتُضرِم المواضي فيها ناراً تعجز الفواجع عن إخمادها، فتنفض على جمراتها رماد الزمن، لتعود الحياة الى بيروت، فتتوهّج من جديد في حكايات وروايات وملاحم وأساطير، ينقلها السلف

إلى الخلف، فاذا بالالتزام بالوطن يتجسّد مجدداً في امرأة شابة، تخَلت عن الجاه والثروة عندما احتاج الوطن الى حماية إبنائه له، وقد استشهدوا ليحيا لبنان، ولنحتفل بهم اليوم مع منصور عيد صفحةً طاهرة من تاريخنا صوناً للبنان التاريخ.

ومن حفنة القصص والروايات إلى ضمّة من المقالات والمحاضرات، حيث فلسفة الاختبار الوجودي في لبنان ليست بغريبة عن أي فلسفة اختبار وجودي آخر في العالم، ما يعني أن دراسات منصور عيد في النتاج الأدبي يشكّل رافعة للفكر اللبناني الطامح أبداً إلى تأكيد شراكته في دنيا الكلمة والفكر على المستوى المحلي والاقليمي والعالمي.

وتتنقّل، في الفصل الثالث من الكتاب، من تجربة الألم في أدب بولس سلامة، التي تضاهي بالمأثور من القول فيها: " أنا أتألم إذاً فأنا موجود"، قول ديكارت الشهير استدلالاً على الوجود: " أنا أفكر إذاً فأنا موجود"؛ إلى تطوّر قضيّة المرأة في روايات إميلي نصرالله، إلى توصيف اللغة فعلاً إنسانياً صادراً عن الذات الإنسانية بتكوينها الشعوري واللاشعوري، إلى العولمة الكاسحة وعلاقتها بمفهوم حقوق الإنسان حيث تشتبك الديمقراطية والعدالة والمساواة والسلام، وتتفاعل في خدمة الإنسان أولاً وأخيراً. وإن حالت الأنظمة السياسية دون تحقيق هذا الهدف فإن منصور عيد لا يفقد الأمل بالإنسان الآتي وبإمكانية إرساء الأخوّة الإنسانية الجديدة، وفتح ما هو مستطاع من نوافذ الانتظارات الجميلة، والسعي إلى بعث عولمة فكرية وثقافية تسهم في نشر الوعي الإنساني، وتمكين روح الحرية، حتى "تتهيأ الأرضُ الصالحة للبذار المبارك قبل أن يبلغ الحصاد الخيّر مرحلة النضج".

ولا يغيب عن بال منصور عيد فرادة لبنان في المنطقة في نظامه الديمقراطي حيث الحوار بين العائلات الروحية المكوّنة لنسيج الوطن هو الضامن لإبعاد الصراع عن الساحة اللبنانيّة وللمحافظة على الوحدة في التنوّع، وصون التراث والخصوصيات من غير تغييب للثقافة الكونية الجامعة للإنسانية في ما تلتقي فيه، على تعدّدية مجتمعاتها، من أسس تتشارك فيها فيما بينها، وتتقاسم حُلوها ومُرّها، وتتبادل خيراتها بشكل علميّ مميّز.

وتحتلّ التربية في المدارس والجامعات المرتبة الأولى في تنشئة أجيال المستقبل، وعلى هذه الصروح يبني منصور عيد منظومة التعلّم للمعرفة للعمل وللتعايش معاً، فتراه يدعو إلى " إنشاء مركز عربي للبحوث التطبيقية والتجريبية"، وإلى "إنشاء بنك للأدمغة العربية يستقطب المبدعيين من الشباب العربي"، وإلى "زيادة رأسمال المؤسّسات التي تشجّع الاختراعات العلمية والاكتشافات لرفع مستوى النموّ الإبداعي ..."، إلخ، لعلّنا في مثل هكذا مناخ من سياسة تنظيمية استراتيجية رفيعة الشأن، يمكن للبنان ولمحيطه العربي أن يبشرا بظهور رؤية مستقبلية إيجابية، تضع المنطقة الشرق الأوسطية على سكّة العالم المتطوّر بفكره وعلمه؛ فيبتعد بالتالي، شبح الحروب والجهل والظلامية عنها وعن إنسانها.

ومن المقالات العلمية والتربوية، تسافر على متن الشعر متنقلاً من "وشوشات الورق" في الكروم حيث "مواويل الهوى" تضرب "مواعيد الجوى"، إلى رحلة عصفور عاشق عصفت في أوصاله أشواق الرحيل "فاستعار الريح عرشاً لجلاله"، ومن ثمّ إلى الدير، ذلك "الهوى في مهجتي"، ومنه يتوجّه منصور عيد إلى هذه الإقحوانة الخجولة السائلة "أتحبني؟"

وما أدراك في طرق الشعر ما ينتاب منصور عيد من "تشلّع" بين حبٍّ صافٍ، و"أنا" باحثة عن "الأنا"، وزمن يجري من غير هوادة...وصولاً إلى لوحة من إنسانية قديمة جديدة، لوحة العذاب الذي عاشته شعوب بلادنا منذ أن كان الغريب سيّد الأرض ومغتصب الحقّ، فيترامى إلى مسمعك من صفحات منصور عيد المعجونة بخبز الوجع، والمجبولة بعرق التعب، والمكتوبة بحبر الدم والظلم، صوتُ "أهل السخرة"، واستغاثةُ المنكوبين المستضعفين من أبناء جلدتنا"، وينتفض منصور عيد على الاستبداد والقهر والحرمان، وينادي بتأصيل الحرية في الإنسان، والتربية على الكرامة والعنفوان حتى تتحرّر شعوبنا من التزلف والاستزلام والاستعباد، فتختار الحرية نهجاً، والحقيقة هدفاً، والعقلانية أسلوبا، حتى تستقيم وتجد لها موقعاً بين الأمم. كأنه بهذه الأفكار يرجعنا إلى القول الروسي المأثور: لا أحدَ يصعدُ على ظهرك، إن لم تكن مُنحنيا.

ولا يفوتنا أن نقتطف من الفصل الأخير من الكتاب، بعضاً مما قيل في منصور عيد الزوج والأب، "كوّن مع شريكة حياته جاكلين عائلة متكاتفة محبّة، رائدها العيش من أجل اللّه،

وهدفها إنماء الحياة"؛ وأنا بدوري أشهد على ذلك. عندما قمت أنا والعزيزة جاكلين بزيارة أصدقاء مشتركين في بتدين، ونحن في الطريق إليهم، قالت لي: "أنا في وجع لا يطاق بعد رحيل منصور. كان الله ظالما وقاسيا للغاية معي. من هو فرحي وكلُّ شيء في حياتي رحل. أين رحمةُ الله وعدالتُه في ذلك؟". كم هو مذهل هذا الحبُّ الأبدي، في زمن يزرع الاستهلاكَ المؤقت والهوان والهشاشة في كل شيء! هذا الحبُّ اللاّزمني لا يمكن أن يستقيم خارجَ علاقة حميمةٍ مع من هو خارجَ الزمن وسيّدُه، مع اللهِ موضوعِ شكواها.

في منصور عيد المفكّر: "المفكر الصافي الذهن والإعلامي الذي تصدّرت مقالاته ومقابلاته صفحاتٍ كثيرة في الصحف اللبنانية والعربية"...؛

في منصور عيد الساكن أبداً في الذاكرة: "يا من وضعت بصمات دامغات طيّبات لك [...] في مسيرة اساتذة وباحثين وطلاب، مَنصور عيد يا كلّ هذا وأكثر، أنت موجود بقوة وحيوية وفاعلية، ولو كنت ستبقى سابحاً فوق سرج فرس الرحيل".

هذا غيضٌ من فيض، مهما بلغ شأوُه لن يفي منصور عيد حقّه في التفاني من أجل رسوليّة الكيان اللبناني التي آمن بها والتزم بها خدمة لكرامة الانسان وحريته، ليس فقط على صفحات الجرائد والكتب، بل التزم بها في كلّ يوم من حياته، فكان قدوة للمثالية الوطنية العليا، إذ حمل لبنانَ رسالةً أدبيّة، فنيّة، وطنيّة، تاريخيّة، موسيقيّة، إبداعيّة، وعانقه عناق العاشقين، مدركاً تماماً أن العناق يجب أن يتأصّل في وجه الزمان "هاهنا" على الأرض، الذي لا يتجاوز اللحظة الخاطفة.

نحن اليوم نستقبل منصور عيد في رحاب جامعة الروح القدس الكسليك على متن كتاب جمع شبكةً وفيرة من نتاجاته ومما قيل فيها، ليكون في متناول كلِّ لبنانيٍ وكلّ إنسان عربي، ذخيرةً ينعمُ بها، ويستشفُّ منها الماضيَ المتمدّدَ إلى حاضرنا، ليستشرفَ مستقبلاً يستحقّه لبنانُ واللبنانيون وكلُّ العالم العربي، لأن منصور عيد أيقونةُ بتدين اللقش إلى العالم.